التلقي والتأويل للنص الفقهي في الموروث الصوفي " رسائل الشيخ عبد السلام الأسمر أنموذجا"

د. أبوبكر محمد سويسي.
كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، الجامعة الأسمرية الإسلامية - زليتن abobkarsousi@gmail.com

ملخص البحث:
جاءت فكرة البحث في محاولة الوقوف على مجموع القيم الإبداعية للنصوص الفقهية في عينة تعد من مدونات الفقه المالكي في التاريخ الليبي، محاولة هذه الاستفادة من المنجز المعرفي المعاصر، وتوظيف النظريات والدراسات الحديثة والمعاصرة المعنية بالاتصال والتأثير، وبدور المتلقي في منح النص القوة التأثيرية الفاعلة، والملمح التواصلي المكتمل غير المنقوص، هذه العينة البحثية تم اختيارها لوقوعها ضمن الإطار البحثي لعنوان المؤتمر، فهي قد مثلت جانبا من جهود الموروث الأدبي في القرن العاشر الهجري، والكشف عن مستوى بذلها الإبداعي في خدمة النص الفقهي، وإرساء منهجيته من خلال استحضار المكونات النقدية والفنية في توجيه الخطاب الفقهي لمتلقي النص.

ولعل السؤال الذي يمثل إشكالية البحث، يتمثل في محاولة الوقوف على مدى فاعلية التلقي لدى الشيخ عبد السلام الأسمر، وهو يستقبل النصوص الفقهية، وكيف تجلت القيمة النقدية للتلقي في بناء المعمار اللغوي للنص الفقهي في رسائله؟ تلك الرسائل التي يتعدد متلقوها بتعدد وجهاتها المكانية والزمانية، فهل هناك حضور وفاعلية لمتلقي النص -وهو متفاوت ومتعدد في أنماطه الأسلوبية-في توجيه حركة النص، وإنتاج نص فقهي مؤسس على النص السابق من قبل الشيخ عبد السلام الأسمر؟

الكلمات المفتاحية: التأويل، التلقي، المقصدية، الموروث، النص الصوفي. research

Abstract

The idea behind this study emerged from an attempt to explore the cumulative creative values within jurisprudential texts. Specifically, focused on a sample drawn from the Maliki jurisprudential writings in Libyan history. The aim was to leverage contemporary cognitive achievements and employ modern theories and studies related to communication and influence. Additionally, we examined the active role of the recipient in empowering the jurisprudential text, emphasizing complete and unimpaired communicative elements.

This research sample was deliberately chosen within the conference's thematic framework. It represents a facet of literary heritage from the 10th Hijri century, shedding light on its creative contributions to serving jurisprudential discourse. By invoking critical and artistic components, we sought to establish a methodological foundation for shaping the linguistic architecture of jurisprudential texts.

The central question driving our inquiry revolves around the effectiveness of reception in the context of Sheikh Abdul Salam Al-Asmar. As he engages with jurisprudential texts, how does the critical value of reception manifest in constructing the linguistic structure of his jurisprudential letters? These letters, received by diverse recipients across various spatial and temporal contexts, prompt us to explore the nuanced and multifaceted stylistic patterns in directing textual movement and producing foundational jurisprudential content based on preceding texts by Sheikh Abdul Salam Al-Asmar.

Keywords: Interpretation, Reception, Intentionality, Heritage, Sufi Texts.

التقديم:

كانت النصوص الفقهية والعقدية الواردة في رسائل الشيخ الأسمر محدودة الكم والورود، قياسا بما تضمنته الرسائل من وصايا ودروس في الأخلاق والسلوك والصفاء الروحي...، وهي نصوص مالكية المذهب تم فيها عرض متعلقات المذهب المالكي في رسائل الشيخ الأسمر من محورين: محور العقيدة، ومحور الفقه، بحيث تُبحث نصوص هذين المحورين في ضوء التقنيات اللغوية، والأسس النقدية لنظرية التلقي والتأويل، التي من شأنها أن تمنح النص مُكنات راسخة وامتدادات واسعة، من حيث الدلالة المقصدية، فتناول الشيخ الأسمر مسائل من موضوعات التوحيد التي رأى حاجة مخاطبيه إليها ماسة، وكانت في مجموعها تلخيصا لما تضمنه كتاب المقدمات للمفكر الأشعري، وصاحب العقائد المشهورة الإمام محمد بن يوسف السنوسي، فكان يتلقى الشيخ النص الفقهي بممارسة التأويل المعتمد على تتبع المقصدية النصية، وينسج مستكملا دلالاتها من خلال آلية القراءة الآنية للنص.

وقد اعتمد الشيخ في العملية التأويلية على عناصر لغوية متعددة تم رصدها في مواطن العرض والتحليل، بغية تفعيل الوظيفة الإفهامية أو التوجيهية للغة، فيعمد إلى عناصر لغوية وتشكلات أسلوبية من أجل تحصيل عامل التأثير المؤدي للإقناع والاتباع وتحديث الأفكار والأحكام، وكان الشيخ في ممارساته النقدية التأويلية للنص الفقهي المالكي يستعين بأبعاد وتقنيات إقناعية، منها مجموع الدلالات المحتملة من ألفاظ النص المؤول، فكثيرا ما يعتمد في تمرير التأويلات النصية على مجموع مقصدية الدلالات للنص تحقيقا للقراءة التأويلية ، إضافة إلى تفعيل

الاستدلال البلاغي، القائم على مقتضيات السياق المقالي والمقامي، فتكون حينها أحكاما مؤسسة على استدلالات لغوية، تؤسس لأحكام فقهية شرعية، منحت المتلقي- الشيخ الأسمر- براحا من المشاركة في استمرارية العملية الاتصالية الفقهية المالكية.

فالشيخ الأسمر في اختياراته التي يمارسها على الألفاظ والتراكيب على نحو معين، لا يخلو حاله من الضبط والمناورة، وإن حريته في هذه الاختيارات ليست مطلقة، بل مقيدة بكيفية استحضاره وتلقيه للنص الفقهي المالكي؛ لكون ذلك التلقي يشكل عنصرا من عناصر نجاح الاتصال اللغوي وفاعليته، ومن ثم تعد عملية تلقيه للنص المالكي عاملا من عوامل التأثير والإقناع الحجاجي لإسهاماته الفقهية، وذلك بما يتحقق من نجاح اتصالي في استمالة متلقي الخطاب نحو مقصدية النص، والشيخ الأسمر بهذا الوصف الإبداعي– وبقدر المدرك التربوي والتعليمي لديه- إنما يقدم خدمة واسعة النطاق وعميقة الأثر في تأسيس القيمة الفقهية للمذهب المالكي، ونشر المنهجية المالكية ليس في حدود المكان- ليبيا-، بل في حواضر إسلامية تقع خارجه، ومن ثم تتبدى آثارها خارج حدود الزمان أيضا.

أهمية الموضوع:

إن التأويلُ هو الأساس الذي تقوم عليه عمليات التواصل اللغوي، فاللغة في حراكها المعرفي تبقى دومًا قيد اتجاهات التأويل ورهنَ طبيعته، وما يقتضيه تحديده واختيارُه، وتعد نظرية التأويل ونظرية تحليل الخطاب الركيزتين القويتيْن في النظرية الأدبية المعاصرة، في تطوير أبعاد المعنى ومعالجته في نظريات النص والتأويل، بوصفه ناتِجَ اشتباكٍ بين نص وقارئ، أو مجموعة من القراء، فكان دورٌ مهمٌ لمنهجية التأويل والتلقي في تكوين وتأطير إطارٍ اتصاليٍ.

أهداف البحث:

يتجه البحث في أهدافه نحو الكشف عن دور المتلقي في تأطير المعنى الدلالي للنص الفقهي في رسائل الشيخ الأسمر، وتفعيل آليات التأويل والتلقي الكامنة في المقاربات الاتصالية لديه، والدور الذي يضطلع به المتلقي – الشيخ الأسمر- في حركة توجيه النص الفقهي، وكيف أسهمت هذه المعايير اللغوية والسياقية لعملية التلقي والتأويل في إبراز مقصد البنية التأويلية للنص الفقهي؟

أسباب الاختيار

من أبرز الدوافع نحو هذا البحث أنه من خلال جملة من الممارسات البحثية في نظرية جماليات التلقي تبدتْ للباحث رؤيةٌ من شأنها الكشف عن مدى اعتبار مبدع النص لقيمة التلقي، والمقاربة بينها وبين البعد المقصدي للنص، فالتلقي والتأويل أساسُهما البحثُ عن مقصد اللفظ، وما يحتجب وراءه من دلالات، ورسائل الشيخ الأسمر بدت مجالا طيبا لبحث هذه المقاربة، إذ كان فيها الشيخ متلقيا لنصوص علماء المالكية – بكل آليات التلقي- وموجها دلالات تأويلية في خطابه لمريديه.

منهج البحث

بما أن البحث يعالج طبيعة العملية الاتصالية من زاوية المتلقي وعلاقتها بالبُعد التأويلي فإن المنهجَ الوصفيّ كان العمادَ في وصف واستخدام أدوات البحث؛ للوصول إلى نتائج واستنتاجاتٍ قائمة على تحصيل قراءة تأويلية، تتلاءم مع المعطيات البحثية لوظيفة النص ومقصديته.

خطاطة البحث

التمهيد/

- التلقي نظرية نقدية في التواصل والتأثير.
- التأويل ومتعلقاته الكفائية.

المبحث الأول: التلقي وبنية النص الفقهي المالكي

- دور المتلقي في تشكُّل النص المالكي.
- الوظيفة الإفهامية في المقاربة الاتصالية.

المبحث الثاني: التلقي وأبعاد التأويل للنصوص المالكية

- تأويل اللفظ وتعدد الدلالات.
- التأويل والاستدلال.

الخاتمة: وبها رصد لمستوى التقديم المعرفي في متعلقات متلقي الخطاب لرسائل الشيخ الأسمر، والمقاربات المنهجية التي استعان بها الشيخ في التواصل والتأثير.

التمهيد:

1. مفهوم التلقي وفكرة أفق الانتظار.

ظهرت خلال مسيرة النقد الأدبي وجوه نقدية جديدة، مختلفة في وجهتها من حيث عنايتها بأطراف العملية الاتصالية، وهي: المؤلف، والنص، والمتلقي، فكان الاهتمام منصبا على المؤلف في ظل المناهج السياقية، وموجها نحو النص في ظل المناهج النسقية، وأخيرا توجه العمل النقدي في العملية الاتصالية نحو المتلقي، فجاءت نظريات التلقي لإبراز الدور الأساس الذي يؤديه المتلقي في عملية إنتاج وبناء المعنى، لعل من أبرز إجرآات التأويل والتلقي دراسة ما يسمى في الدرس النقدي بأفق الانتظار، وهو مفهوم جديد للرؤية التاريخية في تفسير النص وتأويله، ويعد هذا المفهوم حجر الأساس لنظرية التلقي؛ لكونه الأداة المثلى التي تمكن هذه الرؤية الجديدة للنص من أداء دورها ومنح النص رؤيتها الخاصة، في أبعادها الوظيفية والتفسيرية، من خلال سيرورة التلقي المستمرة، فأفق الانتظار هو من يسمح بالتمييز بين عملية تلقي النص زمن ظهوره وتلقيه في الزمن الحاضر والمستقبلي مرورا بسلسلة التلقيات المتتالية.

فأفق الانتظار- أفق التوقع- وهو ذلك الافتراض الأوّلي الذي ينطلق منه القارئ ظانا أنه سيصل إليه عند الانتهاء من قراءته للنص، وهذا يسهم في رد فعل القراء المتلقين للنص، وطبيعة الرد هذه هي التي من خلالها يتم بناء المعنى ويتم إنتاجه، وبه تتحدد القيمة التاريخية والجمالية للنص، وذلك عن طريق استمرارية الحوار بين النص والمتلقي، فيتم رسم الخطوات الأساسية للتحليل المفضي للتأويل المفتوح على مدى خبرات المتلقين وثقافاتهم التي يمارسون بها التحليل، فبقدر تنوع الثقافات والخبرات نصل إلى عدد غير متناه من التأويلات النصية.

ويبقى من العوامل المهمة في تفعيل أفق الانتظار مدى اتساع الخبرة والتجربة المسبقة للحقل الذي ينتمي إليه النص، فالنص الفقهي المالكي بقدر التمثل الذهني لمشاربه ودروب مسائله وقواعد تأصيله يكون مدى التوقع التأويلي أبعد، وغوره أعمق، إضافة إلى أبعاد التلاقي والتباين بين السياق الأول في إنتاج النص، وسياق إعادة الإنتاج أي تلقيه، بين سيرورة الإنتاج والسيرورة الواقعية اليوم، وبناء عليه تكون عملية القراءة النصية خاضعة لمجموعة من الأسس والمعايير القائمة على التصور المنهجي والإلمام بهذه الأسس، إذ كل قارئ يقبل على النص ومعه خلفية معرفية مسبقة تقود إلى خلق تصور مسبق يجعل المتلقي في حال من التفاعل مع النص، وغالبا ما يكون أفق الانتظار عرضة للاهتزاز بسبب هذا الطرق الذهني والتفاعل التلقائي مع النص، يكون هذا ممثلا للاستجابة القرائية للمتلقي، وما يمكن أن يترتب على هذا من آثار وأحداث، ولا يخلو الأمر هنا من أمرين: أن يكون النص موافقا لذات المتلقي، ومألوفا لديه سواء في الشكل أو في المضمون، وهنا يتماشى النص مع المعطيات التي عهدها في قراءاته السابقة، ولا يخلو الحال هنا من استقبال فاتر وانفعال ضعيف، فيخلو أفق الانتظار من حصول الحدث أي التغيير، وما يسمى بلحظة الخيبة، أو أن يكون النص مناقضا ومخالفا للمعطيات والتوقعات التي يعهدها المتلقي، وهنا تبرز قدرة المتلقي على التأويل وكسر أفق الانتظار والتوقع، " إن الحقيقة التي نلمسها من خلال مفهوم أفق الانتظار أن مقياس تطور النوع إنما هو المتلقي، وذلك لأن مجموعة المعايير التي يحملها من خلال تجاربه السابقة في قراءة الأعمال هي تخص ذلك التطور في اللحظة التي تتعرض فيها تلك المعايير إلى تجاوزات في الشكل واللغة، وهذه اللحظة هي لحظة الخيبة"

ولعل مما يتمم أفق الانتظار في عملية تلقي النص ما يسمى بالمسافة الجمالية، وهي" ذلك البعد القائم بين ظهور الأثر الأدبي- النص- وبين أفق انتظاره، ويمكن الحصول على هذه المسافة من خلال استقراء ردود أفعال القراء على الأثر" ، وكلما اتسعت المسافة بين أفق الانتظار الجديد وبين الأفق الموجود سلفا كلما ازدادت القيمة والأهمية للنص، وكلما تقلصت المسافة كان النص قليل الثراء موسوما بالسطحية، بهذا تحولت المسافة إلى معيار للعملية الإبداعية وللحضور الفني والجمالي للنص.

وبهذه التمايزات النقدية للنص التي سيتم رصدها في نصوص الشيخ الأسمر نكون قد وقفنا على ما يمثل معاني التواصل والتأثير، والأسس التي حكمت توظيفها ومقتضيات حركتها ونشاطها، ومجمل الأبعاد الفاعلة في إدارة سياقاتها، فالعملية التواصلية ليست عملا اعتباطيا بل حدث تم التخطيط له، موجه لمقاصد وغايات معينة، فهي عملية تفاعلية تنشأ بين النص والمخاطب، من خلال استعمال اللغة الطبيعية أو اللغة السيميائية كما هو الحال في رسائل الشيخ الأسمر، فالتأثير الناجم عن تفاعل حدث التلقي هو من أجل تبليغ المقاصد وإحداث التأثير وتحصيل الإقناع.

2. عملية التأويل ومتعلقاتها الكفائية

لما كان من بين ما يمكننا أن نقف عنده في رسائل الشيخ الأسمر في مقام التأويل مجموعة من المحاور المسهمة بشكل فاعل في تفاعل الخطاب مع متلقيه استوجب هذا الوقوف الكشف عن ربط النص المؤول بما يتوفر لدى المتلقي من مهارات متعددة، تضيف إلى دائرة فهم النص أفكارا ورؤى جديدة،" فالتأويل هو فن تأويل النصوص في سياق مخالف لمؤلفيها وجمهورها الأول، يهدف لا كتشاف أبعاد جديدة"

إن عملية التأويل تقوم بوصفها فعلا استدلاليا لمقاصد كلامية معينة في رسائل الشيخ الأسمر على الاتكاء على العوامل اللغوية وغير اللغوية والعمل على توظيفها، فقد وظف الشيخ الأسمر ما وسعه من هذه الآليات من أجل الوقوف على المقاصد المبتغاة، وبتعبير التداوليين من أجل الوقوف على القوة الإنجازية المقصوددة في رسائله، باعتبارها أفعالا كلامية يقتضي الاستدلال بها تحليلها وفق سياق الحال، والنمط القولي المستخدم، واستراتيجيات التفاعل مع المتلقي ومبادئ الخطاب، والمؤشرات اللغوية وغير اللغوية، أي بما تشير إلية الكفاية الاتصالية، وهي مجموع المعرفة بالقواعد النفسية ولثقافية والاجتماعية التي تتحكم في استعمال الكلام في إطار مجتمع معين، وتقوم الكفاية الاتصالية على أساسين يمثل كل منهما كفاية صغرى يكتمل دورها مع نظيرتها، فالأولى هي البنية اللسانية وعلاقتها بالعملية التأويلية كونها "القدرة الظاهرة على استعمال اللغة للتعبير عن فكرة أو موقف أو شعور بأحسن صورة وأجود عبارة ة، والانتباه لكل ما يحمل على الإمتاع والإقناع، الحاصل من حسن استعمال الأدوات والتراكيب والأساليب وفق ما يتطلبه الموقف الكلامي على خلفيات اجتماعية وسياسية وثقافية وغيرها، وكل ما من شأنه أن يمنح المؤول القدرة على إنتاج القول المؤدي للمقاصد الكلامية.، والأخرى هي البنية التداولية وتتحدد علاقتها بالعملية التأويلية كونها الكفاية" التي تخوّل للمؤول تأويل ما يستقبله باشتراطات وحدود معينة، أبرزها: أن على المؤول العلم بمقتضيات استعمال اللغة صوتيا وصرفيا وتركيبيا ومعجما، امتلاكا للأساس اللساني، ثم أن يتمكن من الجمع بين التراكيب وخصائصها الاستعمالية، والوحدات الصوتية والصرفية ...وأبعادها الدلالية الاستعمالية للنصوص.

المبحث الأول: التلقي وبنية النص الفقهي

وكما أشرت سابقا أن متعلقات المذهب المالكي في رسائل الشيخ الأسمر في محورين: محور العقيدة، ومحور الفقه يتم عرضهما في ضوء الأسس النقدية لنظرية التلقي والتأويل، استجلاء للرؤى والأبعاد التي طالتها حركة التلقي والتأويل في البنية اللغوية للنص الفقهي، وذلك بما تم إسقاطه عليه من التقنيات والاستراتيجيات ومستجدات علم الخطاب بما يكفل تحقيق القدر الأوفى من الشمولية والعمق الدلالين، فكان الوقوف على مرتكزات فاعلة في رصد العلاقة القائمة بين النص وتلقيه تأويله.

- **دور المتلقي في تشكُّل النص الفقهي المالكي.**

تناول الشيخ الأسمر مسائل من موضوعات التوحيد التي رأى حاجة مخاطبيه إليها ماسة، وكانت في مجموعها تلخيصا لما تضمنه" كتاب المقدمات للمفكر الأشعري وصاحب العقائد المشهورة الإمام محمد بن يوسف السنوسي برمته، وهذه المقدمات تعتبر بمثابة المدخل التمهيدي لما كتبه الإمام السنوسي في علم التوحيد... وقد هيمنت هذه المقدمات مع باقي مؤلفات السنوسي هيمنة لا حدود لها في المجال العقدي والتعليمي في المغرب العربي، منذ القرن التاسع الهجري وحتى يومنا هذا، والسر في هذا- فيما يبدو لي- هو التزام السنوسي لمنهج أهل السنة والجماعة، وهو المنهج الذي ارتضاه معظم سكان الشمال الأفريقي في المجال العقدي والتزموا به".

يقول الشيخ الأسمر في رسالته إلى مريديه بمدينة غريان" إخواني عليكم بالتوحيد، وهو مذهب الأشعري، والأستاذ السنوسي..."،وفي هذا يتبنى الشيخ ما يسمى بالمقصد السياقي، وهو أحد المفاهيم في نظرية التأويل المعاصرة، وفيها يكون النص منجزا من المؤلف يقصد به ممارسة ألوان من التأثير على المتلقي، فكان الشيخ الأسمر يذهب في تلقيه لنصوص الفقه المالكي إلى أساس التأويل المحصل لمقصدية المؤلف، مدركا أن وظيفة تلقيه للنص الفقهي المالكي هي سعي عميق لإدراك مقصدية المؤلف، فالمعنى في اعتقاد الشيخ محكوم بمدى صلته بالمقصدية، والغرض الذي يبتغيه المؤلف من الخطاب من خلال دلالة التلقي، التي تسعى للإحاطة بدلالة المتكلم والمؤلف.

وفي عرض الشيخ لمسائل العقيدة، واختياره فرضية السؤال والإجابة يتلقى الشيخ النص الفقهي بممارسة التأويل المعتمد على تتبع المقصدية النصية، فيقول:" وإذا سألك سائل عن الإيمان بالله تعالى هو مخلوق أو غير مخلوق؟ فالجواب: أن تقول له: ينقسم على قسمين مخلوق وغير مخلوق، فالإيمان بالله تعالى هو التصديق بوجوده ووحدانيته، وهذ غير مخلوق، وأما إيمان العبد فإنه مخلوق، لقوله تعالى: والله خلقكم وما تعملون" وهنا يكون تلقي الشيخ للنص ومفاده السؤال عن الإيمان بالله تعالى أمخلوق هو؟ بطرح تشكل لرأى الشيخ تم من خلاله التواصل مع المخاطب وفق مقصدية النص التي لا تعنى بثبوت الإيجاد من عدم الإيجاد لمكون الإيمان، بل المقصدية هي إثبات الكمال للذات الإلهية بما لا يتشاكل مع طبيعة الحدوث والتغير المحكومة بها أفعال العباد، هذه الدلالة والمقصدية تخضع لربط النص بالسياق، هذ السياق الذي يحتل فيه سياق المتكلم مكانا معتبرا؛ لكون الدلالة مرتبطة أشد" الارتباط بسياق التواصل بين المرسل والمتلقي، فالشيخ وهو المتلقي للنص له دلالة التلقي، وهي ما تعرف بالدلالة الإضافية في مقابل الدلالة الحقيقية، فالحقيقية هي المؤطرة لمقصد المتكلم وهذه غالبا تحتل موضع الثبوت وعدم المغايرة،

في حين أن الدلالة الإضافية وهي دلالة " تابعة لفهم السامع وإدراكه وجودة فكره وقريحته، وصفاء ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها وهذه الدلالة تختلف اختلافا متباينا بحسب تباين السامعين في ذلك"

فكان التلقي للنص المتقدم منتجا دلالة الإيمان بمعنى التصديق بالوجود، ودلالة الإيمان بمعنى التحصيل من العباد، فالتلقي وهو يضيف دلالة تأويلية يشيع فضاء دلاليا يمنح المتلقي معنى إضافيا من شأنه تعميق أو تأطير أو انفتاح للقصدية النصية.

- الوظيفة الإفهامية في المقاربة الاتصالية.

فيما يسمى بالنظرية التواصلية حددت جملة من الوظائف اللغوية، من بينها الوظيفة الإفهامية، وهي وظيفة تتمحور حول المتلقي الذي يعرض عملية تلقيه للنص الفقهي في رسائل نصية وخطابات تستهدف متلقين آخرين، فيتحول المتلقي الأول إلى مرسل له متلق معنيٌ به – المتلقي الأول- وبتحصيل الإفهام لديه، فهي عملية يحاول المرسل بواسطتها إفهام المتلقي والتأثير فيه أثناء العملية التواصلية، فالمتلقي عنصر مهم في العملية التواصلية وفي عملية تأويل الخطاب؛" لأن طبيعة المتلقي حاضرة حضورا بينا في العملية الإبداعية".

فكل خطاب يعمد من خلال المتلقي إلى الإفهام والإيضاح يكون بمحل استراتيجية توجيهية تعد ضغطا وتدخلا بدرجات متفاوتة على المرسل إليه- المتلقي- والعمل على توجيهه لعمل مستقبلي معين.

ونجد في العملية التأويلية للشيخ الأسمر في رسائله لمريديه اتكاء على عناصر لغوية فيما يسمى بالوظيفة الإفهامية أو التوجيهية للغة، فيعمد إلى عناصر لغوية وتشكلات أسلوبية موجهة لمتلق آخر، وهم الأتباع والمريدون، وذلك من أجل تحصيل عامل التأثير المؤدي للإقناع والاتباع، وتغيير الأفكار والسلوكيات، وفي الغالب ما تكون العلاقة القائمة بين طرفي الرسالة ذات الوظيفة الإفهامية علاقة تراتبية وسلطوية، - الشيخ والمريدون- فيكون حينها هذا النوع من الخطاب" يحوي رموزا ودلالات وإيحاآت وقدرة على تحقيق الإفهامية، تستطيع أن تثير لدى القارئ ما يمكن أن يعد نشاطا إبداعيا مؤثرا".

وقبل التعرض لرصد الوسائل اللغوية والاستخدامات الأسلوبية التي وظفها الشيخ الأسمر في الوظيفة الإفهامية حال عرضه نتاج تلقيه النص الفقهي المالكي المعني بالإيمان وزيادته ونقصانه نضع أمامنا نتاج التلقي من قبل الشيخ الأسمر الذي جاء فيه:

" وفي الإيمان من يزيد وينقص، وفيه من يزيد ولا ينقص، وفيه من لا يزيد ولا ينقص، أما الذي يزيد وينقص فهو إيمان المسلمين الموحدين، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأما الذي يزيد ولا ينقص فهو إيمان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، واما الذي لا يزيد ولا ينقص فهو إيمان الملائكة فهم على الدوام وليس عليهم معصية تنقص إيمانهم"

فالشيخ الأسمر عمد إلى جملة من العناصر اللغوية والاستخدامات التركيبية والأساليب الإفهامية في النص المتقدم بيانها كالآتي:

- **التضاد**: فعمد إلى توظيف التضاد في كل من الأسماء والأفعال، فقال: يزيد/ وينقص.
الطاعة / والمعصية.
- **التكرير:** كرر الشيخ الأسمر في هذا العرض لطبيعة تلقيه النص الفقهي المالكي حرف التفصيل- أما- مع اسم الموصول- الذي- ثلاث مرات.
- **أما التفصيلية:** أما الذي... وأما الذي...
- **استقراء الصور للحدث الفعلي**: فعندما نزاوج بين الزيادة والنقصان تكون النتيجة مؤلفة من ثلاث حالات لا تخرج عنها، الأولى: ثبوت الحالين الزيادة والنقصان، والثانية: انتفاء الحالين الزيادة والنقصان، والثالثة: ثبوت طرف وانتفاء الآخر.
- **تعليل الأحكام**: فمن أجل بلوغ كمال الإقناع يعقب الشيخ أحكامه بالعلة التي تقود إلى تبني الحكم الموضوع للمسألة الفقهية، فذكر عقب الزيادة والنقصان الثابتة للمسلمين الموحدين كيفية الزيادة وكيفية النقصان، وهكذا...

المبحث الثاني: التلقي وأبعاد التأويل للنصوص المالكية

- **تأويل اللفظ وتعدد الدلالات.**

إن التأويل يحقق الاتساع الذي هو مجال خصب لتنوع الدلالات، يتحدد فيها مقصود الملفوظ من غير المقصود، بمن خلال تأويل له دواعيه المشتركة في الغاية المحددة، ووجوه عملية الصرف التي انزاح عنها المقصد إلى ما سواها، ويتطلب الصرف دليلا وقرينة داخلية أو خارجية على الرأي المؤول حديثا، هذا وإن كان المعنى المؤول حديثا غائبا عند صاحب الرسالة ولم يكن حاضرا لديه، وأن القرينة التي قادت للتأويل لا تتعدى الظن الغالب، فيكون دليل التأويل" أغلب على الظن من الظاهر الذي صرف عنه اللفظ بالتأويل، والاحتمال البعيد يحتاج إلى دليل قوي ... والاحتمال القريب يكفيه دليل يجعله أغلب على الظن".

وقد تلقى الشيخ الأسمر نص المالكية في الذكر الجماعي في الجنازة بتأويل صرف فيه النص عن ظاهره قياسا لما ذهب إليه في جواز الذكر الجماعي مع الجنازة، فقال الشيخ:" إذا نقلتم ميتكم إلى المقبرة فاذكروا الله تعالى بكلمة الشهادة، وانووا ثواب ذلك الذكر لميتكم، وما من ميت ذكروا الله عليه حين حملهم لجنازته إلا وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

أصحابي: ولا تنقلوا ميتكم للمقابر وأنتم سكوت، ... ولا التفات إلى إنكار منكر في ذلك، فإن قيل: إن الذكر في جماعة كرهه مالك، قلنا: المكروه من قبيل الجائز لا يسمى ضلالة، ولا يدخل صاحبه النار، وعلة الكراهة عند مالك لعدم فعل السلف لا على إطلاقه، وكم من أشياء لم تكن في عهد السلف وهي واجبة أو مستحبة"

إن تأويل الكراهة في الذكر الجماعي بكون الكراهة مقيدة غير مطلقة، وتفعيل القياس على أفعال لم تكن موجودة ومه هذا كان لها حكم الوجوب أو الاستحباب، هذا مما يعد اجتهادا من الشيخ الأسمر في المذهب، اجتهاد التزم فيه بالأصول الفقهية المالكية، حين علل المنع بعدم فعل السلف له، ثم كشف عن أن هذا المنع ليس على الإطلاق بل على التقييد، قياسا على ما لم يكن موجودا وقت السلف، وانتفى عنها حكم الكراهة أو الحرمة، فكانت القرينة بالقياس على المماثل من الأقضية والأحكام.

بهذا التأويل لنص الإمام مالك نجد المتلقي – الشيخ الأسمر- أمام مجموعة من الدلالات التي أفرزها التأويل اللفظي للكراهة لدى الإمام مالك، فمن قوله: ... المكروه من قبيل الجائز لا يسمى ضلالة...، ترصد عدة دلالات مركزية في بيان الحكم الفقهي، منها:

- دلالة أن ما كرهه الإمام مالك يحمل على البدع والضلالة..
- دلالة ما إذا كان الأمر المكروه لدى الإمام مالك من قبيل الجائز لا يتعدى إلى الوصف بالضلالة.
- تأكيد دلالة عدم التعدي للضلالة بنفي أن يترتب على الفعل دخول النار.

هذه الدلالات المركزية تتعالق بدلالات أخرى مؤصلة للحكم الفقهي المؤول، ومؤكدة لنتائج الدلالات المركزية، بدت في هذا التأويل في أكثر من محور:

- **التعالق الطلبي:** وذلك حال الأمر بالذكر عند رفع الجنازة، (إذا نقلتم ميتكم إلى المقبرة فاذكروا الله تعالى) ثم في حال النهي عن السكوت في ذلك، (ولا تنقلوا ميتكم للمقابر وأنتم سكوت...) فكان الأمر والنهي -وكلاهما إنشاء طلبي- تعزيزا لما يقع في اهتمام الدلالات المركزية المتقدمة.
- **التعالق السلوكي:** وهو ظهور الآثار السلوكية والخيارات التربوية للمؤوِّل على دلالات ذلك التأويل اللفظي، يقول الشيخ: " والذكر جماعة أصل الصوفية مما يجمع قلوبهم إلى مولاهم، وقد فعل ذلك بحضرة شيخنا الدوكالي ولم ينكره، وكان يمشي خلف الجنازة ويذكر الله إلى المقبرة مدة حياته".

التأويل والاستدلال

إن مفهوم الاستدلال البلاغي هو الاستدلال القائم على مقتضيات السياق المقالي والمقامي، بما يمثل تراتبية دلالية من قبيل دليل اللزوم المفضي للاستنتاج والاستنباط والأحكام المقتضية وفق ذلك، حيث يستدل من خلاله بالمعنى على المعنى، الذي يتحول فيه تأويل اللفظ إلى استدلالات لغوية، تؤسس لأحكام فقهية شرعية، تسمح بمزيد من المساحات الأحكامية التي من شأنها أن تمنح المتلقي براحا من المشاركة في العملية الاتصالية الإفهامية، والمشاركة التشريعية والفقهية للشيخ الأسمر في الفقه المالكي، وهذا يقوم دليلا على اتساع في الرؤية الفقهية المالكية للشيخ، وعمق وثراء في دلالة تلك النصوص المالكية.

فالشيخ الأسمر عندما سئل عن حكم تقبيل اليد، أشار في جوابه لرأي الإمام مالك في المسألة، وأوسع في مدى الرؤية المالكية التي كانت تقتضي عدم جواز تقبيل اليد، وذلك من خلال تأويل جواب الإمام مالك تأويلا مؤسسا على ما أورد من استدلالات إقناعية، فقد قال الشيخ الأسمر:

" وأما تقبيل اليد فقد سئل مالك عنه فقال: تركه أحبّ إليّ، قلت قوله: أحب إلي يقتضي كراهته لا منعه، وأجازه جماعة من الحنفية والشافعية، حتى قال ابن بطال في شرحه لجامع صحيح البخاري: لا يكره تقبيل اليد عندنا، إنما يكره تقبيل يد الظلمة والجبابرة، وأما الأب والرجل الصالح ومن ترجى بركته فيجوز أن يقبل جميع جسده سوى العورة، فإن قيل: لم يثبت عمل السلف بذلك، فقد يجاب عن عدم فعل السلف بذلك اكتفاء برؤيته صلى الله عليه وسلم، وحسما للذريعة في دعوى النبوة لتزلزل إيمان المنافقين والآن وقد ارتفعت العلة لاتساع بلاد الإسلام فلا يضر ذلك"

ونلحظ هنا أن التأويل قد نحا خطه في محورين في هذه المسألة، وهما:

- تأويل قول الإمام مالك في: تركه أحب إليّ...

- تأويل ... لم يثبت عمل السلف بذلك ...

فالتأويلان كانت وراءهما جملة من الاستدلالات البرهانية المانحة لهما فاعلية الإقناع والتسليم من قبل المتلقي، فالأول الترك المذكور فيه القائم لدى الإمام مالك تم تأويله بالكراهة دون التحريم والمنع، إذ لم يعدو الترك المنقول عن الإمام مالك درجة الكراهة، وتم الاستدلال على صحة تأويل الترك بالكراهة دون التحريم بالنقل عن الحنفية والشافعية، وبعد أن استدل على تأويل الترك بالكراهة استدل بقول ابن بطال شارحا نص البخاري على تقييد الكراهة بفئة مخصوصة، وهم الظلمة والجبابرة ومن في حكمهم..، واستدل من خلال تقييد الكراهة إلى جوازها بالمفهوم، وأن الصالحين وأولوا الأرحام جائز في حقهم التقبيل.

فتنقل الاستدلال بالتأويل بدء من تأويل الترك بالكراهة إلى الاستدلال بتقييد الكراهة في الظلمة، إلى الاستدلال بجواز تقبيل من ليسو بظلمة ولا معتدين.

وأما التأويل الثاني في النص الفقهي المؤسس على عدم فعل السلف فتم تأويله لعدم وجود الموجب لذلك- التقبيل- حينها، ودفعا لشبهة التزلف للنبي صلى الله عليه وسلم زمن حياته، فتعاضد التأويل بالاستدلال الذي يؤكد أن ارتفاع العلة يلزمه ارتفاع الحكم الفقهي، ولا مبرر لتفعيل الحكم مع غياب موجبه، فتم الاستدلال برؤية النبي صلى الله عليه وسلم على صحة تأويل عدم عمل السلف بوجود ما يكتفى به عوضا عن فعل السلف الآن، وهو الرؤية والحسم المذكوران في المسألة.

فكان الاستدلال المعقب للتأويل متمثلا في ثلاثة أنماط، هي:

- استدلال مذهبي: الحنفية والشافعية.
- استدلال حديثي: ابن بطال وشرحه لجامع البخاري.
- استدلال منطقي: تعليل عدم فعل السلف بعدم الموجب في زمانهم، وأيضا وجود المبرر للترك وعدم الفعل، وهو الاكتفاء بالرؤية، وسد الذرائع.

فشكلت هذه الأنماط رؤية واسعة مؤسسة على مبادئ الحجة والإقناع بمضمون نتائج التلقي ومسارات التأويل.

الخاتمة

- وظف الشيخ الأسمر ما وسعه من آليات التلقي للوقوف على القوة الإنجازية المقصودة في رسائله، باعتبارها أفعالا كلامية يقتضي الاستدلال بها تحليلا وفق سياق الحال، ووفق النمط القولي المستخدم، ووفق استراتيجيات التفاعل مع المتلقي ومبادئ الخطاب، ووفق المؤشرات اللغوية وغير اللغوية.
- جاءت نصوص المذهب المالكي في رسائل الشيخ الأسمر في محورين: محور العقيدة، ومحور الفقه، فتناولت التقنيات النقدية لنظرية التلقي والتأويل والاتصال المعاصرة ما من شأنه أن يمنح النص الفقهي المالكي مُكنات دلالية راسخة وامتدادات واسعة من حيث المقصدية المالكية.
- كثيرا ما كانت العملية التأويلية للنص الفقهي لدى الشيخ الأسمر مرتبطة بسياق التواصل بين المرسل والمتلقي، اعتمادا على الدلالة الإضافية وهي الدلالة التابعة لفهم المتلقي.
- كانت تأويلات الشيخ تقوم على عدد من الاستدلالات النقلية والعقلية، تسهم في إنتاج تلقيه للنص الفقهي المالكي.
- تحول تأويل اللفظ لدى الشيخ إلى استدلالات لغوية تؤسس لأحكام فقهية شرعية، وتسمح بمزيد المساحات الأحكامية التي من شأنها أن تمنح المتلقي براحا من المشاركة التشريعية والفقهية للشيخ الأسمر، وهذا يقوم دليلا على الاتساع في الرؤية الفقهية المالكية، والعمق في دلالة تلك النصوص، ومُكنة على إدارة آليات اللغة وتقنيات النقد.

مصادر البحث:

- رسائل الأسمر عبد السلام بن سليم الإدريسي الحسني إلى مريديه. تحقيق: مصطفى رابعة. دار المدار الإسلامي. بيروت. ط1. 2003.

مراجع البحث:

- الأصول العرفية لنظرية التلقي. دار الشروق للنشر والتوزيع. عمان. ط 1، 1997،
- استراتيجيات الخطاب. مقاربة لغوية. عبد الهادي الشهري. دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت. ط1. 2004.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين. ابن القيم الجوزية. دار طيبة. ج1.
- البلاغة والأسلوبية. محمد عبد المطلب. مكتبة لبنان ناشرون. ط1. 1994.
- الفلسفة واللغة. نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة. دار الطلبة للطباعة والنشر. ط1. 2005.
- الكفايات الاتصالية التواصلية. - دراسات في اللغة والإعلام. هادي نهر. دار الفكر العربي. الأردن. ط1. 2003.

- الكفايات التواصلية – اللغة وتقنيات التعبير والتواصل. عبد السلام عشير. منشورات توب أديسون. ط1. 2007.
- مذكرة أصول الفقه. الشنقيطي. مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة. د ت.
- نظرية التلقي أصول وتطبيقات. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب. ط1. 2001.
- نظرية التلقي والنقد الأدبي الحديث. محمد بو حسن. جامعة محمد الخامس. المغرب. د ط. د ت.
- نظرية القراءة. المفهوم
- والإجراء. عبد الرحمن تبر ماسين